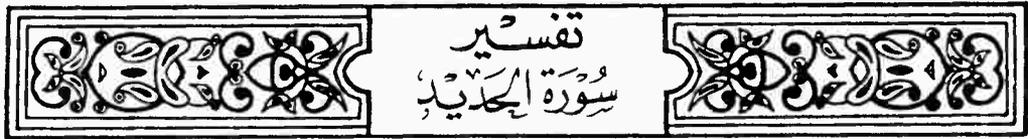


﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصَلِيَهُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ﴿فَنَزَّلْنَا﴾ أي فضيافة ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿وَنَصَلِيَهُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي وتقدير له في النار التي تغمره من جميع جهاته. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه، ولا محيد لأحد عنه ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ روى الإمام أحمد لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: 74] قال «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: 1] قال: رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم».



تفسير سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السماوات والأرض، أي من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى: ﴿تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ النُّجُومُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي خضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره وشرعه.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ روى الإمام أحمد عن عرباض بن سارية أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية» وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب. والآية المشار إليها - والله أعلم - قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ قال البخاري: قال يحيى: الظاهر

على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم «اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر» رواه مسلم في صحيحه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥٩﴾﴾

يخبر تعالى عن خلقه السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وزروع وثمار، كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَعَلَيْهِ مَآ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي من الأمطار والثلوج والبرد والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل». وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار، في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَبْتِثُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّ يُسْتَعْتَبُونَ يَا بَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْتَثُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٩﴾﴾ [مرد: 5] وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٦٠﴾﴾ [الرعد: 10] فلا إله غيره ولا رب سواه وقد ثبت في الحديث أن رسول الله قال لجبريل حين سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ ﴿٦٠﴾﴾ أي هو المالك للدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ لَنَا تَلَوِّجًا وَأَلْوَاكًا ﴿٦١﴾﴾ [البلد: 13] وهو المحمود على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصر: 70] فجميع ما في السماوات والأرض ملك له، وأهلها عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٦٢﴾﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٦٢﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٦٣﴾ [مريم: 93-95] ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ تَرْجِعُ

الْأَمْوَرُ ﴿ أَي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُحْكَمُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، بَلْ إِنْ يَكُنْ عَمَلُ أَحَدِهِمْ حَسَنَةً وَاحِدَةً يَضَاعَفُهَا إِلَى عَشْرٍ أَمْثَالِهَا ﴾ ﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 40].

﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿٦﴾

﴿ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أي هو المتصرف في الخلق، يقبّل الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته كما يشاء فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاء، ثم ربيعاً، ثم قيظاً، ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به خلقه ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي يعلم السراء وإن دقت وإن خفيت.

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ

كَبِيرٌ ﴾ ﴿٧﴾

أمر تبارك وتعالى بالإيمان بالله وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾ أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم، ثم صار إليكم فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في ضاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه، وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه. وقوله: ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعت في معاونته على الإثم والعدوان. روى الإمام أحمد عن مطرف يعني عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «الهاكم التكاثر» يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» ورواه مسلم وزاد «وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس». وقوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٨﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان بالله، والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به. روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة، قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم، قالوا فالأنبياء، قال: وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم، قالوا: فنحن، قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها». ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ كما

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: 7] ويعني بذلك بيعة رسول الله ﷺ.

﴿هُوَ الَّذِي يُزِلُّ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْنَطُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٩)

﴿هُوَ الَّذِي يُزِلُّ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْنَطُ﴾ أي حججاً واضحة ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي في إنزاله الكتب، وإرساله الرسل، وإزاحة العليل، وإزالة الشبه.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٠)

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أنفقوا ولا تحشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السماوات والأرض، ويده مقاليدهما، وعنده خزائنها، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿وَمَا أنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَبِيرٌ الرَّزِيقِ﴾ [سبا: 39] وقال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96] وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أنه قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا فتح مكة، وقيل: صلح الحديبية. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فلخبرته فإوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك.

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُمْ وَا لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١)

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي جزاء جميل، ورزق باهر، وهو الجنة يوم القيامة. روى ابن أبي حاتم لما نزلت هذه الآية ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُمْ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح» قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي - وله حائط فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه

وعيالها - قال: فجاء أبو الدحداح فناداها، يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل، وفي رواية قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، وإن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح».

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢)

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعون نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم. كما قال ابن مسعود: في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال على قدر أعمالهم يمشون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه، يتقد مرة ويطفأ مرة. وقوله: ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي وبأيامانهم كتبهم كما قال: ﴿فَنَنْوِي أَوْقَى كَتَبَهُمْ بِسَمِيئِهِ﴾ [الإسراء: 71] وقوله: ﴿بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يقال لهم: بشراكم اليوم جنات، أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٣)

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأحوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة، وإنه لا ينجو يومئذٍ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به، وترك ما زجر الله عنه ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142] فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المنافق والمؤمن ﴿انظُرُونَا نَقْتَسِمْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ فإننا كنا معكم في الدنيا، قال المؤمنون ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾ هو حائط بين الجنة والنار. قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الاعراف: 46] ﴿بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿وَظَاهِرٌ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي النار.

﴿يُنَادُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّبْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ

جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّبَكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (١٤)

﴿يُنَادُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم

الجمعات، ونصلي معكم الجماعات ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى، قد كنتم معنا ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا فَتَنَّا أَنْفُسَكُمْ وَرَبَّيْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّبْتُمْ الْأَمَانِ﴾ أي ﴿فَنَتْنُ أَنْفُسَكُمْ﴾ باللذات والمعاصي، والشهوات، ﴿وَرَبَّيْتُمْ﴾ أي أحرتم التوبة من وقت إلى وقت ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿وَغَرَّبْتُمْ الْأَمَانِ﴾ أي قلتم سيغفر لنا. وقيل: غرتكم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورِ﴾ أي الشيطان. ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا، أي بأبدان لا نية لها، ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك، فكنتم تراوون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً.

﴿قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَسْأَلُ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١٥﴾

﴿قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه. وقوله تعالى: ﴿مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ﴾ أي هي مصيركم، وإليها منقلبكم. وقوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَانِكُمْ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبش المصير.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ﴾ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: أما أن للمؤمنين ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، وتفهمه وتقاده له وتسمع له وتطيعه، عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ...﴾ إلا أربع سنين. رواه مسلم. قال قتادة: ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما يرفع من الناس الخشوع». وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نهي الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبدوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراھين القرآن، والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضلل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿إِنَّ الْمُضْطَرِّينَ وَالْمُضْطَرِّينَ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُهُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٨﴾﴾

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله، لا يريدون جزاء ممن أعطوه، ولا شكراً، ولهذا قال: ﴿يَضَعُهُ لَهُمْ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي ثواب جزيل حسن ومرجع صالح ومآب كريم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هذا تمام الجملة، وصف الله المؤمنين بالله ورسله بأنهم صادقون. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحديد: 19] هذه مفصلة ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فهم ثلاثة أصناف: يعني المصدقين، والصدّيقين، والشهداء كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: 69] ففرق بين الصدّيقين والشهداء فدل على أنهما صنفان، ولا شك أن الصدّيق أعلى مقاماً من الشهيد. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ

غَيْثٍ آجَبٍ الْكُفَّارِ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْدُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ

اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرأ لها: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنْطَرَةِ الْمُنْتَفَرَةِ مِنَ الدَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَبْلِيِّ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ

ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَوْتَابِ ﴿١٤﴾ [آل عمران: 14]. ثم ضرب الله مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية، ونعمة زائلة فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْعَيْتَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: 28] وقوله: ﴿أَعْمَبَ الْكُفَّارَ نَبَاطُهُ﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها، وأميل الناس إليها ﴿ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي يهيج الزرع فتراه مصفراً بعدما كان خضراً نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً، أي يصير يبساً متحطماً، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان يكون كذلك في أول عمره، وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه، ويفقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54] ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها، ورغب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ أي ليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا، وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان. وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ أي هي متاع فإن غار لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة، روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها» أقرأوا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ وهذا الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة، والله أعلم. وروى الإمام أحمد قال: قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك» انفرد بإخراجه البخاري.

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢١﴾

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد جنس السماء والأرض ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم، وإحسانه إليهم، جاء في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، قال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا تنصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتهم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما

صنعتهم، تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢١﴾﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي في الآفاق وفي نفوسكم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي من قبل أن نخلق الخليفة، ونبرأ النسمة ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها، وكتابتها لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل، لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَانَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا، وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطاكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، لأنه لو قدر شيء لكان ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَانَكُمْ﴾ أي أعطاكم ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي مختال في نفسه، متكبر فخور على غيره.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كما قال موسى ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا

الْحَبِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو النقل الصدق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالحق والعدل، وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال تعالى: ﴿وَوَعَدْتُمْ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115] ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام

رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وبيانات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف، وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم». ولهذا قال: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحرب والسنان والنصال والدروع ونحوها ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أي في معاشهم كالسكة والفأس والقدم والمنشار والإزميل والمجرقة والآلات التي يستعان بها على الحراثة والحياسة والطبخ والخبز، وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَبْصُرُ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي من نيته في حمل السلاح نصرته الله ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضكم ببعض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ فَتَيْنَا عَلِيَّ ءَأَنْدَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَفَقَيْنَا يَعْسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَءَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ أَتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَةٌ أَتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

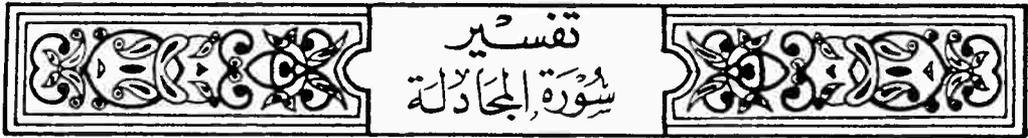
يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ﷺ لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم ﷺ خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاب، ولا أرسل رسولاً، ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالة، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ فَتَيْنَا عَلِيَّ ءَأَنْدَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَفَقَيْنَا يَعْسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَءَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ أَتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون ﴿رَأْفَةً﴾ أي رقة ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخلق. وقوله: ﴿وَرَهَابِيَةٌ أَتَدَعُوهَا﴾ أي ابتدعها أمة النصارى ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما شرعناها، وإنما هم التزموا من تلقاء أنفسهم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فيه قولان، أحدهما أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله. وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل: ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ هم الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ وهم الذين كذبوني وخالفوني.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَبَعَثَ لَكُمُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أجرين بإيمانهم بعيسى ابن مريم وإيمانهم بمحمد ﷺ ﴿وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ. في الحديث: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران». ﴿يؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي ضعفين ﴿مِن رَّحْمَتِهِ﴾ وزادهم ﴿وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ﴿وَبَعَثَ لَكُمُ﴾ فضلهم بالنور والمغفرة.

﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ وهكذا رواه البخاري تعليقا.

﴿الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَابِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾

روى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت: في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً، قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل